الفصل الرابع

المسألة الدوناتية

لم يكن قسطنطين يدرى حالة سمح لنفســـه أن يرى فى الأفق ضياء وصليبا ، أن وراء الأفق هذا يكمن الخطر ، وما دار بخلده لحظة اتفق مع حليفه ليكين فى ميلانو ، ان يضعا عن المسيحية اصرها والأغلال التى كانت عليها ، أن رجـــالات كنيستها سيحملون الى جفنيه الأرق ويسلبون عينه الكرى ، ولا أمل حين فك عقال عبادها أن أولئك الأشياع ستعصف بوحدتهم حرية الفكر والجدال ، وذلك شىء يخفق له قلب الامبراطور رعبـا وهلعا ، فوحدة الرعية أساس وحدة الدولة ٠

كانت دنيـــا الامبراطور التى يحيـــاها آنئـذ غرب الامبراطورية ، والامبراطورية كلها عالمه الذى يأمل ٠ أما وهو الآن ســـيد الغرب فحسب بعد أن دحر منافسه ماكسنتيوس ، فلا أقل من أن تكون الوحـــدة شاملة هذ الغرب ٠

فى سبيل ذلك حرر المسيحيين ، ولم يضطهد الوثنيين ، فضمن أن يقف الى جواره فى مشروعات له آتيـة لا ريب فيها ، عنصـــرا قاطنى جـزء الامبراطورية الغربى ، انه يتطلع الى الشـرق ، وفؤاده يهفو اليـه ، ولابد أن يتراص الغرب كله وراءه يدفعه ويسانده ، لا محـــل لخلاف أو نزاع ، ولا مجال لفرقة أو انقسام ٠

ولكن قسطنطين انتقـل الى الشرق وترك وراءه غربا قـد كلم ، يئن لجراح انقسام ألمت به ، ولم يستطع الامبراطور ازاءها أن يفعـــل شيئا ٠ حقـقة حاول الكثير ، ولكن جهوده لم يقدر لها نجاح ، ولم يكتب لها فى عهده اخناق ، بل كانت أشبه شىء بسياسة تهدئة ٠ وصلت فى نهاية أمرها الى حد العنف ثم هوت الى لا شىء !

كان ذلك نتيجة طبيعية للسياسة الجديدة التى اتبعتها الدولة فى مسألة العقيدة ، فلم يكن الأباطرة قبلا يهتمون بما يجرى بين جماعة المسيحيين وانفسهم ، بل كانت نظرتهم لهم كلية ، تختلف من امبراطور لآخر عداوة أو مسامحة ، اما نزاعات المسيحيين العقائدية ومحاوراتهم الجدلية فلم يكن لها عند الدولة الوثنية قليل اهتمام ، أما وقد اعترفت الدولة الآن بحق المسيحيين فى حياة عقائدية حرة ، فانه اصبح لزاما عليها أن تنظر بعين الاعتبار الى كل ما يجرى بين هذه الجماعة من جدل أو تخاصم قد يضر بالدولة مباشرة أو مواربة ٠

علمنا أن قسطنطين بعد ظفره عند القنطرة الملفية قد ضم اليه أقاليم خصمه ماكسنتيوس وبها ولاية افريقيا ، ثم شخص الى ميلانو ليزف لى ليكين اخته ، وليحالفه الى حين ، وعلمنا ايضا ما انتهى اليه تحالفهما من اطلاق حرية العقيدة لرعايا العاهلين الكبيرين ، وبدا لقسطنطين انه قد وضع فى جيبه ورقة ربح جديدة ، ولكن سرعان ما جاءته الأنباء فى بادىء الأمر تمشى على استحياء تقول ان فى كنيسة افريقيا انقساما ، وتدعوه الى تدارك الخطر ، وما تلك الا رسالة(١) بعث بها انوللينوس حاكم الشمال الأفريقى متضمنة شكايات فريق الدوناتيين الذى كان على خلاف مع الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة والتى يراسها كايكيليانوس آنئذ ٠

وربما كان قسطنطين على علم يسير مسبق بحدوث هذا الانقسام ، كما يتضح من رسائله الى نائبه فى افريقا والى اسقف قرطاجة(٢) ، ولكنه لم يكن يتصورها بهذه الخطورة التى ستعلن بها بعد ذلك بقليل عن نفسها ٠

وتعود بنا الأحداث الى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه وطأة الاضطهاد الدقلديانى عندما صدرت الأوامر الامبراطورية باحراق الكتب المقدسة ، فاختلف موقف رجال الكنيسة من هذه التعليمات وتباين سلوكهم بين ستر وعلن ، وهوادة وعنف ٠ فبعضهم آثر حياة الحرمان والضياع فاسرى بما تحت يديه من أسرار الديانة المسيحية ، وآخر استمع فى دهاء للنغمة

---

(١) Jones, Constantine, pp. 103-104.

(٢) راجع الفصل الثالث ٠

الامبراطورية فالقى فى النار كتبا أخرى تنعتها الكنيسة بالهرطقة ، وثالث رافه آثر الحفاظ على العز والجاه فأسلم ما لديه للحريق من كتب مقدسة ، وأودع ما تبقى فى قلبه من ايمان معها قسرا أو طواعية ، عندما سعى الى الأوثان يضحى على مذبحها ، وأخير رفض الاذعان وناوأ جبروت السلطان فلقى الشهادة ، وامتدت بالانقاذ للقلة منهم يد السماء !

وكان منسوريوس Mensurius أسقف قرطاجة معتدلا ، فلقد فضل أن يتوارى ومعه الكتب المقدسة ، تاركا فى كنيسته بعض كتب تخالفها الكنيسة الرأى لتستولى عليها السلطات الحاكمة ارضاء لرغبات الامبراطور ، وعلى ناحية يقف سكوندوس Secundus أسقف تيجيسيس Tigisis مطرانية نوميديا ، يعارضه الرأى ويستهجن هذا السلوك ، وبينما لام الأول من دفعوا أنفسهم الى ساحة الشهادة باعلانهم أن فى حوزتهم كتبا مقدسة رافضين تسليمها ، مدح سكوندوس هذه الفئة ممجدا استشهادها(٣) . وكان موقفه حازما تجاه موظفى البلاط الذين أتوه يطلبون اليه تسليم ما لديه مما يبتغون ، فصاح فيهم بأنه مسيحى وليس مارقا على الدين(٤) .

وانقضت سنو الاضطهاد بقسوتها وعنفوانها ، وساد الكنيسة سلام ، ولكن خلافات العقيدة والكنيسة أبت الا أن تعكر صفو هذا الهدوء الذى تمنته الكنيسة طيلة قرون ثلاثة ، فازدادت حدة الخلاف بين حزبى منسوريوس وسكوندوس ، وأخذ كل منهما يحدد موقفه ازاء من زلت فى الخطيئة أقدامهم ابان فترة الاضطهاد ، فقربوا للاوثان ، أو دفعوا بالكتب المقدسة حتى يدرءوا عن أنفسهم الموت أو العذاب . وقد احتدم الخلاف حول جواز تعميد الخطاة وقبولهم فى رعية الكنيسة .

ويقر القديس أوغسطين مع ذلك الدوناتيين على ضرورة العماد لديهم كما هو حادث فى الكنيسة الكاثوليكية ، ولكن ينكر عليهم مراسيمه . وأن طالب المعمودية عليه أن يعى حقيقة الخلاف بين وجهتى النظر حتى يتم

---

(٣) S.M. Jackson, The new Schaff-Herzog encyclopedia of religious knowledge, III; F. Jackson, op. cit. pp. 290-201; Lietzmann' from Constantine to Julian, p. 84.

(٤) Jones, Constanine, p. 105.

تعميده على نحـــو سليم يتوافق وطقوس الكنيســـة الجامعـــة ويستقيم جوازه(٥) • ونرى اوغسطين يستطرد مؤكدا « •• فالعماد قائم فى الكنيسة الكاثوليكية •• هذا ما نجهر به وهم له منكرون ، وطقوس العماد فى الكنيسة الكاثوليكية على نهج قويم •• ذلك شيء آمنا به وهم به كافرون ، أما عندهم فلا تحظى مراسيمه بالصـــواب فى شيء ، تلك حقيقة نعيهـــا وهم عنهـــا معرضون »(٦) •

واذا ما اخفق انسان فى التوفيق بين اصـــرارنا على أن العماد لا يتم على حق اليقين عند جمـــاعة دوناتوس ،وبين اعترافنا بأنه قائم بينهم فعلية أن ينتبه الى أننا ننكر تماما وجـــوده بينهم على نهج قويم ، وذلك فى مقابل عدم اعترافهم بكيانه بين الذين لا يشتركون فيه واياهم »(٧) •

وكانت المسألة فى جوهرها تمس شخص من يقـــوم بالشعيرة ، وتصل الى اغوار خلقه ،وتوغل فى صلاحه ،ونادى الدوناتيون بأن من يفتقد الطهارة والقداسة لا يمنحها ، ونظروا الى الاضطهاد كما لو كان قـــد طبعهم بميسم الكنيسة الحقة الواحدة ، يقفون والضـــد من الكنيسة الكاثوليكية ، أما هذه فتفرق بين فريقين من الخارجين عليهـــا ، الهراطقة ، والمنشقين ، وتعتبر الدوناتين فصلا فى الأخيرين ، وان كانت تنعى عليهم تعليمهم لبعض التعاليم الهرطقية(٨) • واحتج الدوناتيون على وضعهم فى عداد الهراطقة ، ذلك انه يمكن القول ان كل الهراطقة منشقون على الكنيسة • فى الوقت الذى لايجوز فيه اعتبار كل الانشقاقات الكنسية هرطقة(٩) • اذ أن الانشقاق يقع لخلاف فى النظـــام الكنسى أو التعاليم •• على عكس الهرطقة التى تمس جوهر العقيدة •

ومما هو جدير بالذكر ، انه بينما غرق الشـــرق الرومانى فى لجة عميقة من الصراع الدينى حول طبيعة المسيح ، واكتسى بحلة الجدال قرونا طويلة ، افلت الغرب من دائرة هذا النزاع الفكرى العميق العقيم ، وحصر

---

(٥) AVG. bapt. I, 4.
(٦) Ibid. 1, 3, 4.
(٧) Ibid. 4.
(٨) S.M. Jackson, op. cit. Art. Donatism.
(٩) A dictionary of Christian biography, art. Donatism.

نفســـه وخلافاته فى دائرة البحث عن وضع أسس التنظيمات الكنسية ٠ ولا شك أن هذا يعود فى الدرجة الأولى الى التكوين الحضارى والفكرى لكل من المنطقتين ، فقد ازدهرت مدن الشرق وخاصـــة الاسكندرية وأنطاكيـة وبرجامه الى جانب أثينا ، بالمدارس الفلسفية العديدة ، والثقافات الاغريقية٠ بالاضافة الى الأصول الحضارية القديمة للشرق الهلنستى ٠

على هذه النظرة كانت المشكلة بين الدوناتيين وخصومهم تنحصر فى صلاحية أو شرعية الأعمال الكهنوتية التى يقـوم بها غير المقدسين أو غير الثقاة من رجال الاكليروس ذاتهم ،وبينما أصر الدوناتيون على أن صلاحية الطقوس الكنسية تعتمد على أخلاق وشخصية رجل الاكليروس القائم(١٠) ، لم تطلب الكنيسة الكاثوليكية القداسة فيمن يباشرون المعمودية ، فـكل رجل دين سواء(١١) ٠

ويوقفنا المؤرخ نورمان كانتور على أسباب هـــذا النزاع ويعلق عليه فيقول انه لما كان زمن الاضطهاد الدقلديانى سلك حـكم ولاية افريقيا جادة اللين ، فطلب اليهم أن يقدموا ، رمزا لنكران العقيدة ، الكتب المقدســـة ، فارتضى ذوو اليســار المسيحيون هذا الرأى ، فلمـا انقشعت غمـــة هذا الاضطهاد ، الفى ذلك الفريق نفسه وقـد وصم بالعار مارقا على الدين من جانب زمرة من المتحمسين غالبهم يندرج فى عداد الطبقات المعدمة ، راحت تحاج بأن القديسين الأطهار ، ولم يصب أيمانهم دنس ، هم وحـــدهم عمد الكنيسة ، واشـــاع الدوناتيون المطهرون أن المارقين قـــد فقـدوا أهليتهم ومسيحيتهم لذلك ، وراحوا ينادون بحتمية اقامة المعمودية على يد قسيسين شفافى النفوس ، هذا وأكدت الكنيسة الكاثوليكية حجية التبعية الاكليركية سندا لحسن المعمودية ، لا السجايا والخلال ٠ ذلك الخلاف ٠ كنيسة للطهار، والكنيسة الجامعة(١٢) ٠

وهكذا فالدوناتية فكرة تجادل تقليد الكنيسة الكاثوليكية هذا ، وكانت مدعاة للشقاق داخل الكنيسة هذه ، وهى تمثل تحديا لاتجاه بدأت المعمودية

---

(١٠) Latourette, expansion of Christianity, I, p. 348.
(١١) McGiffert, op. cit. p. 380 n. 16.
(١٢) Cantor, op. cit. p. 49.

بمقتضاه تنتقل على مر الوقت الى محفل من البشر ينتظم مختلفا أخلاقيا ، مقدمة للخلاص الحق وسيطا هو الفضيلة ، غير أن هـــذه الفكر الدوناتية ووجهت بمدافعة كاثوليكية تصر على طقس العماد فى حـــد ذاته بعيد عن ممارسيه ، وتفصل فصلا تاما بين طهارة الكنيسة وقداسة رجالها ٠

على هذا النحو راحت هوة الخـــلاف تتسع بين الكنيسة الكاثوليكية والخارجين عليها ، الا أن ذلك كله لم يعـد خلافا فى الرأى ، وكان لابد من حادثة بعينها تفجر الصـــراع وتنقله الى حيز الواقع العملى ، وما لبثت الأحداث أن قذفت بشراكها عندما التقط أنوت منسوريوس أسقف قرطاجة عام ٣١١ وثار الخلاف من بعده عمن يلى منصبه الشاغر(١٣) ٠

اتجهت أنظـار الكنيسة الكاثوليكية الى رئيس شمامسته كايكيليانوس Caecilianus وكان ساعد منسوريوس الأيمن وعضده فى معارضته لمسلك أشياع كنيسـة القديسين ، كما كان شديد التحمس لمبـادىء الاعتـدال فى النظام الكنسى(١٤) ٠ وكانت العادة قد جرت على أن يحضر مندوبون عن كنائس نوميديا للمشاركة فى اختيـار أسقف قرطاجة(١٥) ، ولـكن أساقفة الفريق الكاثوليكى تغاضوا عن هذا العرف ، واقدموا فى شىء من العجلة على اختيـار كايكيليانوس للأسقفية(١٦) ، ويمكننا أن نعلل سلوكهم هـذا بعلمهم أن أسقف تيجيسيس لن يوافق على مثل هذا الاختيار ، فقـــد كان سكوندوس ومنسوريوس على طرفى نقيض ، ولما كان كايكيليانوس تلميـذا لمنسوريوس فقد كان من البدهى أن يكون سكوندوس ورجـــال كنيسته أول المعترضين على اختياره لهـذا المنصب ٠ ومن ثم أرادت كنيسة قرطاجة أن تضع خصومها أمام الأمر الواقع ٠

من هنا عمد رجال الاكليروس فى قرطاجة الى سرعة اتمام اجراءات

---

(١٣) Palanque-Bardy-Labriolle, Histoire de l'église depuis les origines jusque à nos jours III, p. 42; F. Jackson, op. cit. p. 291.

(١٤) McGiffert, op. cit. p. 391 n. 20.

(١٥) S.M. Jackson(op. cit. III, art. Donatism; Hefele, op. cit. I, 1, p. 266.

(١٦) Jones, Constantine, p. 106; Duchesne, Histoire ancienne de l'église, II, p. 106-107.

اختيار كايكيليانوس ،وقد قام بهذا العمل ثلاثة من أساقفة المدن المجاورة هم فيلكس Felix أسقف أبتونجا Aptunga ونوفللوس Novellus أسقف تيزيك Tyzicum وفاوستينوس Faustinus أسقف توبوربو Tuburbo •. وتولى سيامته فيلكس Felix الأبتونجى(١٧) •وكانت كنيسة نوميديا قد أرسلت من لدنها مندوبين لحضور مراسم الاختيار ، وكان بين هؤلاء الرسل دوناتوس Donatus أسقف مدينة Casae Nigrae (١٨) • وهو غير دوناتوس الكبير الذى تولى الأسقفية بعد ماجورينوس أول أساقفة هذه الطائفة ، والذى يرجح أن تكون الطائفة قد اشتقت منه اسمها(١٩) • وان كان من العسير حقيقة أن نجزم بأى من الرجلين تنسب(٢٠) •

الفى أساقفة نوميديا أنفسهم وقد خرج الأمر من أيديهم ، فتملكهم الغضب وراحوا يبحثون عن سبيل ينفذون منه لتحقيق أغراضهم ، ولما لم يجدوا فى شخص كايكيليانوس ثلمة تمكنهم من مهاجمته وتجريحه ، أشاعوا أن الطريقة التى تم بها اختياره جرت على نهج سقيم ، فقلة من الأساقفة فقط هم الذين اختاروه لهذا المنصب ، ولكن هذا لم يكن شيئا الى جوار الاعتراض الاخر القائل بأن فيلكس مارق ، لما أتاه ابان فترة الاضطهاد(٢١) • وعليه يغدو رسم كايكيليانوس غير ذى صلاحية • وقد حاول أسقف قرطاجة الجديد تهدئة خواطر الفريق المضاد ، فعرض عليهم أن يمر من جديد بعملية رسم ثانية • ولكن أساقفة نوميديا رفضوا بالطبع هذا الملتمس ، ولجوا فى عنادهم(٢٢) • والتأموا فى مجمع عقدوه فى قرطاجة ضم سبعين أسقفا ، قرروا فيه عدم الاعتراف بشرعية اختيار كايكيليانوس أسقفا وعزله ، وقاموا برسم أسقف جديد يدعى ماجورينوس(٢٣)،

---

(١٧) Palanque-Bardy-Labriolle, op. cit. III, p. 42; Lietzmann, op. cit. p. 84.

(١٨) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(١٩) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit.III 43; Hefele, op. cit. I, 1, p. 270.

(٢٠) A dictionary of Christian biography, art. Donatism.

(٢١) Ibid. MsGiffert, op. cit. p. 280 n. 16.

(٢٢) Lietzmann, op. cit. p. 84.

(٢٣) Id.

ثم قام المجمع بارسال رسالة الى جميع اساقفة افريقيا يطلعهم فيها على ما تم اجراؤه(٢٤) ، وهكذا انقسمت كنيسة قرطاجة الى حزبين متضادين ، احدهما معتدل يمثل الكنيسة الكاثوليكية ويتزعمه كايكيليانوس والاخر يمثل كنيسة القديسين ويرأسه ماجورينوس Magorinus .

وعلى مدى عامين من وقوع هذه الأحداث استفحلت شقة النزاع بين الجانبين ، وراح كل فريق يجذب الى صفه الأنصار ، وينادى بانه على الحق المبين ، وتلك كانت الصورة التى اضحى عليها الشمال الافريقى غداة انتصار قسطنطين على « طاغية روما » سنة ٣١٢ · وانه لجدير بالملاحظة أن سيد الغرب كان على علم بهذا الانقسام الذى أمست فيه الكنيسة الأفريقية ، ويتضح ذلك من انه قصر اعطياته ومنحه على الجانب الذى أخبر انه على الحق ، وهو الكنيسة الكاثوليكية(٢٥) · وكان المصدر الذى استقى منه الامبراطور هذه الايضاحات هوسيوس اسقف قرطبة(٢٦) · ولكن قسطنطين لم يكن يدرى حقيقة النزاع فى الشمال الأفريقى ، فلا هو أحيط علما بفحوى الجدل ، ولا كان على بينة من طبيعة الخلاف ، وظل الامبراطور هكذا الى أن جاءته المكاتيب من الفريق الدوناتى تخبره حقيقة الأمر(٢٧) ، وفى الحقيقة يبدو أن الدوناتيين كانوا يحتجون على القرار الذى تخذه قسطنطين بلفظهم خارج دائرة الهبات الامبراطورية التى انعم بها قسطنطين على الكنيسة(٢٨) ·

غير أن شيئا آخر لابد وأن يكون دافع الدوناتيين فى احتجاجهم لدى قسطنطين ، ولنبحث عن هذا الشىء عند الامبراطور ذاته · ففى رسالته الى كايكيليانوس ، والتى يحدد فيها مبلغا من المال للكنائس(٢٩) ، اختتم قسطنطين هذه بقوله :

---

(٢٤) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 42.
(٢٥) EVSEB, hist. eccl. X, 6-7.
(٢٦) Jones, Constantine, p. 81.
(٢٧) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 42.
(٢٨) C.A.H. XII, p. 692.
(٢٩) راجع الفصل السابق ·

لما كانت مسامعى قد صكتها أنبـاء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصـرف الجموع عن الكنيسة المقـدسة الجامعـة ، يخزى المزاعم ودنسها ، حق أن تعلم أنى قـد زودت انوللينوس البروقنصل ، وباتريكيوس Patricius **نائبه ، عندما كانا فى حضرتنا ، بأوامر فحواها أنه الى جانب كل مسئولياتهم الأخرى ، عليهم أن يبذلوا لهـذا الامر فائق عنايتهم ، وأن لا تغفل للحظة أعينهما عن تدارك أى حدث ، وعليـه • فان عاينت اناسا ماضون فى عتههم ، فاشخص على التوالى موظفينا هـذين ، وأجـل لهما القضية ، فيسلكان معهم حسب رأيى ، وليحفظك لاهوت الرب العظيم سنين عـددا(٣٠) •**

واضح من مقتطف رساله قسطنطين انحيازه الى جانب واحـد دون أن يتحقق فحوى القضية ، وهـو فى اتخـاذه جانب الكنيسة الكاثوليكية يفصح عن مدى وحى ذلك الأسقف الأسبانى اليـه • وسلوكه سبيل العنف ازاء فريق لم يسمع بعـد شكايته ، تعطينا معنى واحدا لسياسته ، ذلك أنه لم يكن يسمح بحدوث أى صـدع فى رعية تملك زمام أمرها البارحة •وهذا هـو ما يجعلنا نميل الى القـول انه بالاضافة الى حرمان الفريق الدوناتى من الهبـة الامبراطورية ، فان احسـاس هـذا الفريق بميل دفة الدولة الى خصـومه دون نقص للحقيقـة أو تمحيص ، جعله يبعث الى الامبراطور ملتمسا •

كان رجـاء الدوناتيين الى الامبراطور يتضمن الطلب بتعيين أسقف من غالة لنظر القضية ، فالدوناتيون لم يلجـأوا للبابا مباشـرة لعلمهم أنه رأس الكنيسة الكاثوليكية ، وان لم تكن البابوية بعد قـد حققت سموا فى المرتبة ، وعلى ذلك فهو يخالفهم الرأى(٣١) ، ولكنهم لجـأوا الى الامبراطور رأس الدولة ، ولكن لا ليفصل هـو بنفسه بينهم ، بل ليكل القضية برمتها الى أحد الأساقفة الغاليين ضمانا للحيدة • ذلك أن غالة لم تكن قـد قاست

---

(٣٠) EVSEB, hist. eccl. X, 6.

(٣١) Davis, op. cit. p. 16; Duchesne, op. cit. II, p. 109.

كغيرها من ولايات الامبراطورية اثناء الاضطهاد(٣٢) · ويعلق المؤرخ جونز على ذلك بقوله : « انه لما يجدر ذكره أن الاساقفة المنشقين لم يلجأوا الى قسطنطين بكونه هو نفسه مسيحيا ، فربما لم تكن هذه الحقيقة المفزعة قد حازت بعد الثقة فى أفريقيا(٣٣) ·

على أن ما يعنينا من هذه الحقيقة أن تلك كانت المحك الأول فى علاقة الدولة بالكنيسة بعد التسامح ،وكانت سابقة خطيرة فى تاريخ الكنيسة اذ عدت دعوة صريحة للتدخل فى شئونها الداخلية(٣٤) ·لقد كانت الكنيسة طوال القرون الثلاثة الماضية قد أغلقت على نفسها باب خلافاتها الداخلية ، وعقدت المجامع المكانية العديدة لمعالجة الانشقاقات أو لعن الهرطقات · ولم تكن الدولة تدرى من أمر ذلك الاصطراع الداخلى بين المسيحيين وأنفسهم شيئا ، بل لم يكن يعنيها فى شىء البتة · أما الان ، وقد أصبح على رأس الامبراطورية حاكم يظهر ميله تجاه المسيحية ، فلا عجب اذا رأينا الكنيسة تسعى اليه ، تعرض عليه خلافاتها ، وتضع أمامه ما يعتمل فى داخلها ، وتطلب اليه الرأى · وكان قسطنطين ذكيا غاية الذكاء ، أراد أن يرسى من البداية ثابت القواعد فى هذه العلاقة حتى يستطيع أن يسير أمور دولته ، بما فيها الكنيسة ، حسب ارادته ووفق صالحه ·وكانت تلك فرصة جاءته على غير توقع ، فاستغلها بغير انتظار · ومنذ هذه اللحظة وحتى منتصف القرن الخامس عشر ، عندما دالت الدولة البيزنطية ، لم يتخلف امبراطور واحد من السير فى الطريق الذى حدد معالمه منذ البدء قسطنطين ، وارتبطت أمور الدولة بشئون الكنيسة ، وهذه بتلك ، حتى أصبح من الصعب أن نفصل بينهما ، وقد لمس هذه الحقيقة حتى فى فترة مبكرة ، سقراط مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس الميلادى ، حيث يقول : « اذا ما ساد الاضطراب أمور الدولة ، عمت الفوضى شئون الكنيسة ، وكأن انجذابا روحيا يربط بينهما » ·

الدوناتيون اذن يرغبون فى الاحتكام الى أسقف غالى ، وقسطنطين

---

(٣٢) Lietzmann, op. cit. p. 85.

(٣٣) Jones, Constantine, p. 104.

(٣٤) Backhouse, Early Church history to the death of Constantine, p. 372.

يبتغى اثبات ذاته فى القضية وسطوته للوهلة الأولى ، فعهد بفض النزاع الى البـابا فى روما واشترك معه ثلاثة من أساقفة غاليـا · وبعث برسالة الى أسقف روما ضمنها عدة معان :

« قسطنطين أوغسطس الى ملتيـادس Miltiades أسقف رومـا ، والى مرقس(٣٥) Marcus ، حيث أن رسائل عـدة قـد تتنى من انوللينوس العظيم ، بروقنصل أفريقيا ، يتبدى فيها أن كايكيليانوس أسقف قرطاجة قد وجه اليه من الاتهامات الكثير من جانب زملائه فى أفريقيا ، ولمـا كان الأمر يبدو لى جد خطير ، حيث أنه فى هذه الاقاليم التى وضعت العناية الالهيـة ثقتها فى اخلاصى لادارتها ، وحيث أنها منطقة بالأهلين آهلة · سوف يجد الناس أنفسهم فى حالة من الشقاق، وفى حال من الكآبة دائم ، والأساقفـة فيما بينهم منقسمون ، ولذا قررت أن يبحر على الفور الى روما كايكيليانوس وبصحبته من الأساقفة عشرة يرى من المناسب تواجدهم لقضيته ، وعشرة آخرون ممن يبدون له الاتهام ، فهناك يمكن سـماع أقواله بما تجده يتناغم وجلال القانون المهيب ·وذلك فى حضرتكم وزملائكم رتيكيوس Reticius (٣٧) وماترنوس(٣٧) Materius ومارينوس(٣٨) Marinus الـذين أمـرتهم بالاسراع الى روما لذات الغرض · وحتى تكون على علم تام بهـذه الأمور فقد ضمنت رسالتى نسخا من الوثائق التى بعث بها الى أنوللينوس ،وأرسلت منها صورا كذلك الى زملائك المشار اليهم ، وحالة تسلمك اياها يمكنكم نظر هذه القضية بعناية والفصل فيها بالعدل ، حيث لا يخفى على فطنتك أنى أكن كل اجلال للكنيسة الكاثوليكية الشرعية ، ولى كبير الأمـل أن لا تخلفوا

---

(٣٥) شخصية غير معروفة وربما كان مساعدا لملتيـادس المسن · راجع : Jones, Constantine, p. 107.

(٣٦) أسقف Auton فى غالة · ويخبرنا جيروم أنه كتب تعليقا على نشيد الانشاد وأخرج عملا ضد النوفاتيين · راجع . HIER. vir. ill. 82.

(٣٧) أسقف كولون ·

(٣٨) أسقف آرل · راجع McGriffert, op. cit. n. 23, 24 p. 381.

وراءكم أى صدع أو انقسام ، ولتحفظك يا سيدى العزيز عناية الاله العظيم أعواما طوالا »(٣٩) ٠

من هذه الرسالة يتضح لنا مدى الدور الذى لعبـــه قسطنطين فى أول اتصال مباشـــر بين الكنيسة والدولة ، فهو الذى اختار القضاة ، وعين مكان التقاضى وزمانه ، وحدد عـــدد المتقاضين من كلا الحزبين ، ورسم الخطوط العامة لسير القضية ، وأوحى الى القضاة بمنطوق حكمهم عندما أعلن فى رسائله اليهم أن قلبه يحمـل كل الاحترام « للكنيسة الكاثوليكية الشرعية » ٠ حقيقة لقـــد كان قسطنطين يتفق أساسا والرأى القـــائل به هوسيوس عن الحالة فى أفريقيا من اعتبـار خصـــوم كايكيليانوس مردة منشقين ، وكان شديد الاقتناع بما ينطوى عليه الانشقاق من أخطار وبلاء ، وظل هذا الاقتناع قرين فـكره حتى يوم رحيله الى عالم الموتى ٠ ولكنه من ناحية أخرى أقدم الان على خطوة مستقلة ، واتجاه قضائى فى مسألة الفريق الذى أحدث الشقاق ، وقرر من عنداياته وجوب فحص القضية ٠ فاختـــار القضاة ، ودعا الفريقين ، وكانت رسالته الى ملتيادس تحمـــل فى طياتها نغمة تفيض « مكتبية » ، لقد كانت حسب تعبير جونز أشـــبه شىء بمذكرة بعثت الى موظف مدنى »(٤٠) !! وليس أدل على صحة هذا القـول من أن قسطنطين قد وجه رسالته الى ملتيادس وآخر يدعى مرقس على قدم سواء ، ولا ندرى من هو مرقس هذا ، وربما كان أحد مساعدى البابا ، ولكن ذكره مع البابا قرينا يدل على مدى النظرة التى ينظر بهـــا الامبراطور الى رأس الكنيسة الكاثوليكية الشرعية « التى يكن لها كل اجلال » !!

شىء آخر يجـــذب الاهتمام ، ذلك أن قسطنطين يبنى انزعاجه لهذه الأحـداث على شيئين جاءت بهما رسالته ، فتلك مناطق عهدت اليه بحكمها عناية الرب القدير ، وهذه نغمة ألفناها من قبل ، وهى أيضا أقاليم قد خصت

---

(٣٩) EVSEB. hist. eccl. X, 5.

(٤٠) Jones, Constantine, p. 108.

بالسكان ، واختلاف أساقفتها فيما بينهم سيجر بالتالى الى تحزب الأهالى الى أى الفريقين · وتلك نقطة على جانب كبير من الأهمية · فقسطنطين كان قد فرغ لتوه من حملته على الراين لتأديب قبائل الفرنجة هنـــاك ، وأصبح السلام فى غالة مستقرا بعد ذلك لفترة طويلة(٤١) · والامبراطور يعد لجولة جديدة فى الشرق · فلا أقل اذن من أن يضمن هـــدوء هذه المنطقـة التى خضعت له حديثا حتى ينصرف لانجاز المرحلة التالية من مشروعه الكبير ، خاصة وأن هذا الاقليم « الآهل بالسكان » ، على حد قوله ، يمكن الاعتماد على رجاله الاشداء فى قابل الايام · فاذا ما أدخلنا فى اعتبـارنا أن قمح روما كان يأتيها من شمال أفريقيا(٤٢) ، وأن حدوث أى اضطراب فيها يمكنه أن يحرم روما أقواتها ، أدركنا لماذا كان قسطنطين حريصا أشد الحرص على استتباب الأمن والنظام ، وفوق هذا وذاك وحدة الدولة ·

اجتمع الأساقفة فى روما فى ٢ أكتوبر ٣١٣(٤٣) ، لا بالطريقـة التى أرادها قسطنطين ، ولكن بالصورة التى ارتآها البابا ملتيادس ، والتى جرت عليها الكنيسة قبلا فى بحث مثل هـذه المسائل التى تهم الكنيسة عقيـــدة أو تنظيما · ولم يشأ قسطنطين أن يعترض على اجـــراء البابا لعلمه التام أن ذلك لن يغير من الأمر شيئا ، وانما هو اجراء شكلى ارتضته الكنيسة ، فلا ضير من اتباعه · فقد قام ملتيادس بتحـــويل ذلك المجلس الامبراطورى الى « مجمع كنسى » بعد أن ضم الى أعضائه خمسة عشر أسقفا من كنائس ايطاليا المختلفة(٤٤) فى ريمنى وفلورنسـة وبيزا وكابوا وبنفنتو وتراكينا(٤٥) · وبحث المجمع القضية المطروحة أمامه ، وفى النهـــاية تمخضت مناقشاتهم

---

(٤١) C.A.H. XII, p. 69.

(٤٢) Jones, Later Roman Empire II, p. 828.

(٤٣) Backhouse, op. cit. p. 373.

(٤٤) Palanque, Bardy, Labriolle, op.cit. p. 45.

(٤٥) Lietzmann, op. cit. p. 86.

عن تبرئة ساحة كايكيليانوس من التهم التى وجهت اليه ورفض دعوى الفريق الدوناتى(٤٦) ٠

ومن رسـالة قسطنطين الى أسقف سيراكوز نتبين أن الدوناتيين لم يقبلوا قرار مجمع روما ، محتجين بأن أعضاءه لم يفحصوا القضية على الوجه الصحيح ، وأنهم تعجلوا فى اصدار حكمهم ، فى هذه الرسالة شرح الامبراطور للأسقف الأمور من بدايتها واطلعه على سير الأحداث منذ اللحظة التى وصلته أنباء هذا النزاع ، قال :

« لما كان البعض فى خبث وزيغ قد أفسح للشقاق بينهم مكانا ، فيما يتعلق والعبادة الطاهرة ، وقوة السماء ، والعقيدة الجامعة ، حدتنى الرغبة فى أن أحسم هذا الجدل ، فأصدرت أمرى بأن يجىء من غالة بعض أساقفة ، وأن يستدعى من أفريقيا الحزبان المتنازعان دوما وعنادا ٠ ففى مثولهم وحضرة أسقف روما يمكن فحص داعية ذلك الاضطراب بعناية فائقة ٠ ولكن الذى حدث أن بعضا قد تناسى خلاصه ، والتوقير الخليق بالعقيدة المقدسة ، فلم يضع للعداوة حدا ، ولم يمتثل لحكم سبق صدوره ، وزعم أن أولئك الذين أدلوا بفكرهم وقرارتهم كانوا قلة ، أو انهم كانوا على عجلة من أمرهم فأصدروا حكمهم قبل أن تفحص بدقة أمور غاية فى الأهمية ٠ من أجل هذا فان هؤلاء الذين كان من الحتم تشبثهم بالأخوة والوئام ، أمسوا ، ويا للعار والشناعة ، على أنفسهم منقسمين ، وغدوا أضحوكة رجال أرواحهم عن العقيدة المقدسة بعيدة ٠ لذلك يبدو لى ضروريا أن هذا الانقسام الذى كان من الواجب توقفه نتيجة القرار الذى سبق لجماعة اتخاذه بمحض اختيارهم ، يتعين على الفور ، اذا كان ذلك ممكنا ، شجبه بحضور الكثيرين »(٤٧) ٠

وأول شىء نلاحظه فى نبرات قسطنطين رنة الأسى والحزن تتملكه

---

(٤٦) Hefele, op. cit. I, 1, p. 273; Duchesne, op. cit. II, p. 122.

(٤٧) EVSEB. hist. eccl. X, 5.

وتسيطر عليه فى كثير من فقراتها ، وما ذلك الا لخشيته من انقسام قد يودى بجهوده ويحطم آماله · وعبارة قسطنطين الأخيرة دالة على ذلك ، فرغبته الجامحة فى وضع حد لهذا النزاع « على الفور » تفصح عن مدى قلقه وهلعه · فنحن الان فى عام ٣١٤ ، واذا علمنا أن الامبراطور قد وجه الدعوة الى أساقفة الغرب لعقد أجتماع جديد فى مدينة آرل Arles قبل نهاية أغسطس ، وأن الحرب الأولى بينه وبين حليفه ليكين قد نشبت فى أكتوبر(٤٨) ،وأنه كان يعلق على هذه الحرب أهمية بالغة لما يبتغيه من ضم أقاليم جديدة غنية باقتصادها والرجال(٤٩) ، أدركنا لماذا كان قسطنطين يذوب رعبا لأنباء هذا الانقسام الافريقى ، ويتحرك شوقا لرأب ذلك الصدع فى صفوفه الخلفية · فما كان له أن يواجه عدوه ، وظهره بسهام الفرقة تطعن !

لهذا كتب الامبراطور فى رسالته السالفة يقول :

« لما كنا قد أمرنا بأن يجتمع فى مدينه ارل الأساقفة من مختلف المناطق ، وذلك قبل نهاية أغسطس ، فقد رأيناه مناسبا أن نكتب اليك أيضا لكى تحصل من العظيم لاتورنيان Latornianus والى صقلية على عربة عامة مصطحبا معك اثنين من ذوى الرتبة الكهنوتية الثانية · يسع عليهما اختيارك · مضيفا اليهم ثلاثة من الخدم ليقوموا على راحتك طوال رحلتك ، واسع جاهدا لتكون فى المكان المحدد قبل الميعاد المضروب ، ونحن على يقين انه بحزمك وحكمة الباقين وائتلافهم سوف يحسم هذا الشقاق ،ذلك الذى لا زال يشكل معيب قائما ، وما جلبه الا جدل مخجل · فليصغ كل لما يملى به الحزبان المتنازعان ، وليع ذلك أيضا من أمرناهم بالحضور ، ولينته الأمر وفق الايمان الأمثل ، وليعد من جديد أخوى الوئام · متعك بالصحة سنين عددا اله مقتدر »(٥٠) ·

---

(٤٨) Gibbon, op. cit. I, p. 464.

(٤٩) راجع الفصل الثانى ·

(٥٠) EVSEB. hist. eccl. X, 5.

والى آرل ، ومن كل بقعة يمتد اليهـــا فى الغرب سلطان قسطنطين ، توافد الأساقفـــة(٥١) لحسم هذا الجدل ، واعادة النظر فيما سبق أن قرره مجمع روما ، ويعلق نورمان بينز Norman H. Baynes على ذلك بقـــوله « لم ترفع الكنيسة صوتها معترضة على مراجعة القـــرار الرومانى والذى صادقوا عليه بكامل حريتهم(٥٢) ·

كان مجمع آرل الخطوة الثانية التى أقـدم عليها الامبراطور للخلاص من هذه المشكلة بعد أن أخفقت خطوته الأولى فى ذلك · واذا كان قسطنطين قد فوض المسألة فى أول الأمر الى ثلاثة من أساقفة غاليا ، يترأسهم أسقف روما الذى أضاف الى المؤتمرين خمسة عشر أسقفا ايطاليا ، فانه فى هـذه المرة قد وسع دائرة قضـائه حتى يكون الحـــكم الذى يصـدر عنهم عاما وشاملا ونهائيا · فمجمع آرل اذن يمثل من هذه الزاوية « العالميـة » · ولكن فى النطاق الذى يسيطر عليه قسطنطين وهو نصف الامبراطورية الغربى(٥٣)· وقد حرص الامبراطور على ابراز هـذه الناحية فى رسالته مرتين فى قوله « يتعين على الفور اذا كان ذلك ممكنا ، شجبه (الانقسام) بحضور الكثيرين » والأخرى عندما ذكر أنه أمر « أن يجتمع فى مدينة آرل الأساقفة من مختلف المناطق » ·

وفى أول أغسطس ٣١٤ اجتمع فى آرل ثلاثة وثلاثون أسقفـا(٥٤) · ومع أن الحاضرين لم يقصروا نشاطهم على المسألة الدوناتية فحسب(٥٥) ، الا أن هـــذه هى التى تعنينا هنا ، وقـد قرر المجمع تبرئة ساحة فيلكس وكايكيليانوس من التهم التى وجهها الدوناتيون(٥٦) ، وأيد الحـكم الذى أصدره قبلا مجمع روما · وكان ذلك بالطبع يعنى ادانة الدوناتيين ثانية(٥٧)·

---

(٥١) C.A.H. XII, 693.

(٥٢) C.A.H. XII, 693.

(٥٣) Hefele, op. cit. I, 1, p. 277.

(٥٤) McGiffert, op. cit. p. 382 n. 32; Palanque-Bardy-Labriolle, op. cit. II, pp. 46-47.

(٥٥) Lietzmann, op. cit. p. 88; Hefele, op. cit. I, 1, pp. 280-295.

(٥٦) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(٥٧) Jones, Constantine, p. 112.

وأرسل المجمع تقريرا عما دار فى جلساته وصـورة من قراراته الى البابا سلفستر حتى يمكن نشرها فى مختلف الكنائس(٥٨) ٠

قرت عين قسطنطين بما قر عليه رأى المجمع ، وهى له أن حكما اشترك فيه أساقفة الغرب اللاتينى على هذه الصورة من الاجماع لقمين بأن يردع الدوناتيين ويعيد الوحدة والسكينة الى هـذه المنطقة ، وما لبث قسطنطين أن هاجم أراضى حليفه ليكين سـنة ٣١٤ ولم ينته العـام حتى كان قد حقق انتصارات رائعة ضم بها كل ما فى حوزة ليكين فى أوروبا عـدا تراقيا ٠ فحقق بذلك بعض حلمه ، وراح يستعد لجولة جديدة وأخيرة يقفز بهـا عبر البسفور الى جناح الامبراطورية الشـرقى ، ولم يكن قسطنطين يتصور أن مسيحيى أفريقيا سيقتحمون عليه هدوءه ثانية بعـد مجمع آرل ٠ غير أن الأحداث سرعان ما خيبت فأله وجاءته بما لم يكن يتوقع أو يهوى ، ذلك أن الدوناتيين رفضـوا الانصياع لقرارات المجمع الأخير ، وسلكوا هذه المرة مسلكا مخالفا ، اذ لجأوا الى الامبراطور ذاته يطلبون قراره الشخصى فى هذا النزاع(٥٩) ٠

وجـد قسطنطين نفسـه ازاء موقف جديد تماما ٠ فالدوناتيون قـد رفضوا لمرتين على التوالى حـكم رجالات الكنيسة ، وها هم الان يحتكمون الى الامبراطور طالبين اليـه نظر قضيتهم بنفسه ، ولم يقبل قسطنطين ذلك بداءة ، ولم يرفضه فى الوقت نفسه جملة ، بل ظل مترددا لفترة طويلة بين الاقدام والاحجام(٦٠) ، غير أنه فى نهاية الأمر قرر اجـابة ملتمسهم ونظر قضيتهم ٠ فدعا الحزبين للمثـول بين يديه فى روما سـنة ٣١٥ حيث كان الامبراطور يحتفل بمرور عشر سنوات على حكمه(٦١) ، فلبى الدوناتيون الدعوة ولكن كايكيليانوس لم يظهر(٦٢) فوجدها الدوناتيون فرصة سانحة لاصدار حكم غيابى ضد أسقف قرطاجة ، واستعدوا لمغادرة المدينة ، ولكن

---

(٥٨) Lietzmann, op. cit. p. 89.
(٥٩) C.A.H. XII, p. 693, Hefele, op. cit. I, 1, p. 296
(٦٠) Id.
(٦١) Lietzmann, op. cit. p. 90; Hefele, op. cit. I, 1, p. 297.
(٦٢) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

قسطنطين اعتقلهم(٦٣) ، وفى نوفمبر ٣١٦ انتقل الامبراطور الى ميلانو(٦٤) ، واليها أحضر الأساقفة الدوناتيين ، واستدعى اليه كايكيليانوس الذى سارع بالذهاب الى حضرة الامبراطور(٦٥) · وفصل قسطنطين بين المتنازعين ، وما كان ليخرج فى قراره عما أقره قبلا مجمعا روما وآرل · ويتساءل البعض فى عجب بعد أن يوضحوا موقف قسطنطين تجاه الحزبين المتصارعين واهماله اياهما ، والتلاعب بهما من روما الى بريشا الى ميلانو ، هل كانت المسألة تستحق هذه السنوات الثلاث ، وأن تطرح للبحث من جديد الأحكام الكنسية التى صدرت فى روما وآرل للوصول الى هذه النتيجة التى انتهى اليها الامبراطور(٦٦) !

على هذه الشاكلة تسنم قسطنطين مرتبة مرموقة بعد أن أن احتل مركز الفيصل فى شئون الكنيسة · ومنذ اللحظة هذه وقسطنطين لم يتراجع عن غنمه هذا قيد أنملة ، فقد غدا مهيمنا على أمر دين هذا الفريق الجديد من رعاياه ، ولم تحتج الكنيسة على ذلك ولم تطلب اليه أن يعيدها حقا سلبه اياها · فقد أعطاها الكثير · ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه الى ما هو أخطر من ذلك ، الا وهو تعيين الأساقفة ! ·

ذلك أن قسطنطين بعد أن أعطى تأييده لكايكليانوس ، وأنكر على الدوناتيين حججهم ، رأى أن يخلص هذا الاقليم من أسباب هذا النزاع ، فأبقى لديه زعيمى الفريقين كايكيليانوس ودوناتوس الكبير خليفة ماجورينوس ، وأرسل من لدنه أسقفين هما يونوميوس Eunomius وأوليمبيوس Olympius الى قرطاجة ليقوما برسم أسقف جديد يرتضيه طرفا النزاع لحسم هذا الخلاف(٦٧) · غير أن سياسة الحل الوسط هذه لم تؤت شيئا مما علقة قسطنطين عليها ،اذ سرعان ما فر دوناتوس عائدا الى افريقيا حيث تبعه كايكيليانوس(٦٨) · وعند ذلك فقد قسطنطين صوابه

---

(٦٣) Jones, Constantine, p. 118; Hefele, op. cit. I, 1, p. 297.
(٦٤) C.A.H. XII, p. 693.
(٦٥) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(٦٦) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III. pp. 48-50.
(٦٧) Ibid. 48.
(٦٨) Jones, Constantine, p. 119.

وخاصة بعد أن جـاءته الأنباء من نائبه فى أفريقيا توضح له سوء الأحوال واضطراب الأمور هناك بين أتباع الفريقين(٦٩) ، وبدأ الرجل الذى أقر فى ميلانو سياسة المسامحـة مع مختلف العقائد ، أول اضطهاد فى المسيحية ، فقد أمـر قسطنطين بمصادرة كنـائس الدوناتيين وبيعهم(٧٠) ، وجرت كثير من الاضطهادات والمذابح بين أفراد هذا الفريق(٧١) مما جعـل الدوناتيين يعتبرون ضحاياهم الذين قتلوا نتيجة هـذا القمع العسكرى فى عـداد الشهداء(٧٢) ·ويبدو أن الفوضى فى الولاية الأفريقية قد بلغت حدا عجزت معه السلطات المحليـة عن قمعهـا مما اضطر الامبراطور الى ارسال قوة عسكرية بقيـادة أورساكيوس ursacius (٧٣) ، لم يتوان دوناتوس الكبير عن مقاومتها والتصدى لها ·

بعد قسطنطين باجراءاته هذه عن الصواب ، وجر على نفسه واقليمه هذا كثيرا من الويلات ، فقد راح الدوناتيون يسلكون هم الاخـرون مسلكا يتسم بالعنف دفاعا عن مبادئهم وكيانهم ، وأخذت مبـادىء الدوناتيين تلقى رواجا كبيرا بين الجموع الفقيرة المعدمة التى آلمها ما أضحت عليه الكنيسة الكاثوليكية من ثروة ورخاء نتيجـة العطـايا التى حصلت عليهـا من الامبراطور ، والتى لم تتذوق منها هـذه الطبقات شيئا · فتألفت جماعات من الفلاحين وعامة الناس ،وتحزبوا للدوناتيين ودافعوا عنهم بقوة السلاح ، وأشاعوا القتل والفوضى فى ولاية أفريقيا(٧٤) ويعلق أحـد المؤرخين على ذلك بقوله « لابد لنا أن نعترف أن كل هذه الأحداث كانت أولى ثمار التحالف بين الكنيسة والدولة(٧٥) » ، وبلغت ذروة التحـدى من جانب الدوناتيين للامبراطور ذاته عندما أرسل اليـه أساقفتهم يقولون انهم لن يتعاملوا قط

---

(٦٩) Palanque, Bardy, Labhiolle, op. cit. III, p. 49.
(٧٠) C.A.H. XII, 693; Hughes. A history of the Church. p. 5.
(٧١) S.M. Jackson, op.cit. III, art. Donatism.
(٧٢) C.A.H. XII, p. 693.
(٧٣) Lietzmann, op. cit. p. 91; Backhouse, op. cit. p. 375.
(٧٤) F. Jackson, op. cit. p. 294.
(٧٥) Backhouse, op. cit. p. 376.

مع أسقفـــه الوغـد ، وأنهم على استعداد لتحمـــل أى عـــذاب يفرضه عليهم(٧٦) ٠

عنـــدها أدرك قسطنطين أن عليـه أن يخطط لنفسه سياسة جديدة ، بعد أن ضاعت جهود عنفه هباء ، فأرسل فى عام ٣١٧ الى نائبه فى أفريقيا والى كايكيليانوس والأساقفة باتبـاع سياسة جديدة تقوم على الاعتـــدال والتسامح(٧٧) ، وأرسل هـــو بدوره أوامر بالسـماح للأساقفة الدوناتيين المنفيين بالعودة الى ديارهم(٧٨) ٠

وفى ٥ مايو ٣٢١ أرسل الامبراطور مرسوما الى نائبه فى أفريقيـــا بالعفـو عن الدوناتيين وأن ترد اليهم كنائسهم المصـــادرة(٧٩) ، ثم دعا الفريقين الى حل مشاكلهما عن طريق الســـلام ، وليس أدل على ذلك مما أقدم عليه الامبراطور ذاته ، فقد بنى كنيسة للكاثوليك فى Cirta ، فقـام الدوناتيون بالاستيلاء عليها ، فلما احتج الكاثوليك على ذلك لدى الامبراطور طالبين منه المساعدة ، جاءتهم هذه على نحو لم يكونوا يتوقعونه ، فقد أمر الامبراطور بارساء قاعدة كنيسة جديدة لهم ممتدحا مسلكهم حيث لم يقابلوا العنف بمثله تاركين الانتقام لعدل الرب(٨٠) ٠ ولعل قسطنطين قد أقدم على هذه السياسة لأنه كان على وشك الدخول فى صـــراع مع ليكين ومن ثم لم يكن يرغب فى أن يترك وراءه الغرب يئن تحت هـــذه المتـاعب التى تشيع الانقسام ، كما أنه لم يكن راغبا أيضـا فى أن يتحدث عنه الشرق المسيحى ـ الذى كان الامبراطور يتطلع اليـــه فيلهفة ـ على أن امبراطور مضطهد ، فراح يعظ الأساقفة الكاثوليك ويطلب منهم الاعتدال تجاه عنف الخصوم(٨١) ولم تحاول الحكومة التدخل فى هذه المشكلة حتى نهاية عهد قسطنطين(٨٢) ٠

---

(٧٦) Jones, Constantine, p. 123.

(٧٧) F. Jackson, op. cit. p. 295; A dictionary of Christian biography, art. Donatism.

(٧٨) S.M. Jackson, op.cit. III, art. Donatism.

(٧٩) Palanques, Bardy, Labriolle, op.cit. III, p. 51.

(٨٠) Lietzmann, op. cit. p. 92.

(٨١) Palanque, Bardy, Labriolle, op cit. III, 52; Duchense, op. cit. II, p. 124.

(٨٢) F. Jackson, op. cit. p. 295.

كانت المسألة الدوناتية تجربة جديدة فى العلاقة بين الدولة والكنيسة ، خاضها قسطنطين · وتأرجحت سياسته فيها بين اللين والعنف واللامبالاة ! ولئن كانت جهوده قد أتت اليه بغير ما اشتهى ، الا أنه كسب خلالها مكانة جعلته فيصلا أعلى فى شئون الكنيسة · ذاك غنم لم يتنازل عنه قسطنطين طيلة محياه ، ولم يتخل عنه خلفاؤه ما بقى للامبراطورية حياة ·

ورغم أن الدوناتية ظهرت على مسرح الأحداث فى الغرب الامبراطورى نتيجة خلاف فى النظم الكنسية مع الكنيسة الكاثوليكية ، الا أنه لا يمكننا أن نغفل أثر العامل الاقتصادى فى اتخاذها سبيل العنف من بعد · فأثرياء المسيحية هم الذين أذعنوا للاوامر الامبراطورية زمن الاضطهاد الدقلديانى الجاليرى وقربوا للارباب ، فى الوقت الذى لقى فيه العنت نفر كبير من ذوى المسغبة ، فلما انقشعت غمة الاضطهاد وأصبح قسطنطين سيد الغرب الفرد ، وراح يغدق أنعمه على الكنيسة الكاثوليكية ورعاياها دون غيرهم ، وأعيدت للكنيسة والاثرياء أملاكهم ، تملك الحقد أفئدة هذه الطبقة المعدمة ، فأعلنتها ثورة عنيفة على هؤلاء الأثرياء ، والكنيسة الكاثوليكية ، متخذة من المبادىء الدوناتية عن التطهر والشهادة وسيلة لها · ويتضح هذا بصورة جلية فى الهجمات التى شنها فقراء الدوناتيين على حقول وقصور سـراة المسيحية فى ولايتى أفريقيا ونوميديا ·

ولا يبعد أن تكون الدوناتية وسيلة وجد فيها أهالى هـذه المنطقة ، الفرصة التى يبحثون عنها من زمن بعيد ، ليخلعوا عن أنفسهم تلك القشرة الرقيقة التى يتحلون بها من الحضارة الرومانية ، نتيجة لهذا الكره الدفين الذى جاء نتيجة لعملية الاستنزاف الاقتصادى المستمر من جانب روما لموارد هذه المنطقة ، اذ كانت أفريقيا تمثل الى جوار مصر قبو الحنطة للامبراطورية · وقد يكون ذلك هو الذى دفع مؤرخا مثل Hughes الى أن يطلق على أعمال العنف التى قام بها فقراء الدوناتية « حرب الفلاحين »(٨٣) ·

---

(٨٣) Hughes, A history of the church, p. 6.